

من هنا نصل مع قصص هذه المجموعة الى مشارف بدايات حقيقية . الى مشارف الحركة الواقعية وقد تحولت في اجساد صانعيها الى فعل انساني ، له قدرة الاسطورة الواقعية النابعة من سواعد الذين يصنعون المستقبل بدمائهم .

« خميس يموت اولاً » ، لان الموت هو الفعل الفلسطيني الذي يتوحد بالعناصر ، ويعيد صياغة معادلة الواقع . لذلك يبقى « هو » مؤشراً على فعل مستقبلي القسما ، وكائناً في جميع الامكنة ، مائتاً في جميع الموت ، وحياء في الشجر والماء . انه ليس الحزن الرومانسي ، بل نقيضه ، انه الحزن المدمر الذي هو الوجه الآخر للحب . انه الحدت الثوري الذي يصنع المستقبل . فحين كانت « المهرة » تستقبل اولادها ، الذين يصنعون مستقبلها ، كان خميس يموت في سبيل الوصول الى هذا المستقبل . لذلك تشكل هذه المجموعة علامة على قدرة الممارسة الجاهيرية على التحول الى ادب جديد لا يزال يعاني الام ولادته .

في هاتين القصة ، يتخلّى زين العابدين الحسيني عن طموح بناء اسطورة فلسطينية غنائية ، ليرى نفسه دفعة واحدة في لهب المعادلة الواقعية المباشرة ، مستعيداً لحظات البطولة الشعبية في زمن القمع الصهيوني . هكذا تأتي هاتين القصتين وكأنيها القاعدة التي ينتصب عليها طموح تحويل الممارسة الثورية الى حلم اسطوري كامل ، الى وعي جماعي حاد وعنيف .

### الحركة والحوار

الحركة الاساسية في هذه المجموعة ، يقوم بها الحوار . حتى وكان السرد القصصي يغيب داخل اشكال الاستنطاق التي تقوم بهما شخصيات القصص لواقعا . من هنا غياب التشكيل والحجم والتركيز على التداخليات الداخلية في بعض الاحيان . اي أن اللغة القصصية لا تزال اسيرة مقترب خارجي ، لا يوحد المظاهرات باسبابها ، بل تبقى القصة وكأنيها محاولة للاجابة على اسئلة يطرحها الواقع ، وليست اسئلة تفرزها تناقضات الواقع .

## صراخ في ليل طويل

### العلاقة الانعكاسية

تتحلق الرواية حول شخصية امين ، الذي يتكلم بصيغة المفرد منذ السطر الاول وحتى النهاية . فأمين هو انعكاس حقيقي لشروط اجتماعية محددة . انه مثقف ينتمي الى الطبقات الكادحة ، لكن ثقافته تصبح سلماً للترقي الاجتماعي . وهو يحمل في داخله جميع تناقضات المثقف ، التي تبدأ بالخيبة والفشل الشخصي ( فشل زواجه من سمية ) مروراً بعلاقته مع عنيات هانم وتاريخ اسرتها العريقة ، وصولاً الى احراق الماضي والتطلع الى المستقبل . داخل هذه الدائرة نثر على شخصية امين ، بوصفها انعكاساً لشروط أفرزتها ، تحاول من جديد عكس ذاتها ( ثقافتها ) على هذه الشروط في سبيل تغييرها . فيحترق الماضي متلاشياً ( وفاة عنيات هانم ) ويبرز المستقبل على ايقاع الحرائق ( طرد امين لسبية ) . هنا تصيح شخصية امين محطة للانعتاق من الماضي ،

عندما كتب جبرا ابراهيم روايته الاولى « صراخ في ليل طويل » في القدس حيف ١٩٤٦ ، كان يؤسس زمنه الروائي والفني على قاعدة ثابتة ، سوف تبقى اللحن الاساسي في جميع اعماله الفنية . رفض الماضي العتيق والتقدم الى الامام ، تحطيم التقاليد البالية واستشتراف مستقبل تلعب فيه القيم الحديثة دوراً مقروراً . هذا اللحن الاساسي يبرز جينياً في الرواية الاولى ، الى جانب البطل المثقف - الذي سيبقى بأشكاله المختلفة بطلا لجميع روايات جبرا اللاحقة . فالثقافة هنا حين تبدأ تلعب دورها تصني حساباتها مع الماضي . تنقسم على نفسها ، لترض إعادة احياء الماضي الميت ، ولتنطلق في بحثها عن العناصر الحية ، المستقبلية في ثنايا الواقع .

\* جبرا ابراهيم جبرا : صراخ في ليل طويل . منشورات اتحاد الكتاب العرب . الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٧٤ .